الفصل الأول

الأندلس حتى عصر ابن رشد

فتح المسلمون شبه جزيرة الأندلس سنة ٩٢هـ في عهد الدولة الأُموية على يد طارق بن زياد، فتوالى عليها الولاة من قِبل الخليفة القائم بدمشق، حتى جاءها الأمير عبد الرحمن بن معاوية، المُلقب بعبد الرحمن الداخل، فارًّا من الشام بعد ذهاب مُلك أُسرته على يد الدَّولة العباسية، واستولى على حاضرتها قرطبة سنة ١٣٨هـ، وقد أَسَّسَ هذا البطل في هاتيك البلاد دولة لأُسرته الأُموية بالمغرب بعد أفول نجمها بالمشرق، وصار منها خلفاء يُنافسون العباسيين ببغداد، وظلَّ الأمر كذلك حتى زالت دولتهم بموت هشام المعتد بالله سنة ٤٢٧هـ من غير أن يترك وارثًا لملكه.

تقاسم الأمراء الأقاليم بعد ذلك، فكان ما عُرف في التاريخ بملوك الطوائف، وكان أشهرهم أمرًا وأنبههم ذكرًا أبو القاسم محمد بن عبَّاد، الذي تلقب بالمعتمد على الله، ملك أشبيلية، فقد «انتظم له — كما يقول المراكشي — في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله، أعني من المتغلبين.»[١] ولكنَّ سوء حظه جعله يستنصر بملك البربر بمراكش يوسف بن تاشفين على الفرنجة، فكان ذلك سبب ضياع دولته؛ ذلك أنَّه بعد أن جاء ابن تاشفين للأندلس ورأى البلاد وعظمتها وخيراتها، طمع فيها فظل يحتال لغرضه ويبث الدعاة والأنصار في داخل الجزيرة بعد أن عاد لمراكش، حتى تم له الاستيلاء عليها وأسر المعتمد على الله سنة ٤٨٤هـ، ومن ذلك الحين «عُدَّ في جملة الملوك واستحق اسم السلطنة، وتسمى هو وأصحابه بالمرابطين.»[٢]

---

[١] المراكشي، ص٩٠ نشر دوزي، ٦٩ طبعة القاهرة سنة ١٩١٤م.

[٢] نفسه، ص١١٤ نشر دوزي، ص٩٠ طبعة القاهرة.

وفي سنة ٥١٥هـ قام بمدينة سوس محمد بن عبد الله بن تُومَرْت، الذي لقب نفسه فيما بعد بالمهدي، وجعل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، مُسِرًّا في نفسه ثلَّ عرش المُرابطين وتأسيس دولة له ولأصحابه على أنقاضهم، وبعد خطوب استطاع هو وخليفته عبد المؤمن بن علي (٤٨٧–٥٥٨هـ) أن يؤسسا دولة الموحدين بالأندلس، «وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التي يملكها المرابطون مدينة مراكش بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٧هـ.»[٣]

في عام ٥٥٨هـ توفي عبد المؤمن، فولي الأمر من بعده ابنه أبو يعقوب يوسف الملقب بالمنصور، وهو الذي شجع ابن رشد على التفلسف وشرْح أرسطو، وبعد وفاته ولي الأمر ابنه يوسف يعقوب الذي حكم من سنة ٥٨٠–٥٩٥هـ، وفي عهد هذا الأمير كانت نكبة ابن رشد والمُشتغلين بالفلسفة، بعد مُحاكمة لا ظل للعدل فيها.

هذه لمحة خاطفة عن الأندلس حتى نهاية عصر فيلسوف قرطبة من الناحية السياسية، وأمَّا من الناحية العلمية فسنرى أنَّ هذه البلاد وقد تعاقبت عليها دول مختلفة كانت مصداقًا لبعض قوانين ابن خلدون الاجتماعية، ذلك أنَّ هذا الفيلسوف الاجتماعي جعل الطور الثاني من الأطوار التي تمر بها الدولة من أوَّل قيامها إلى انقراضها، «طور الاستبداد — أي: استبداد الأمير على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة — ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيًّا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والأنصار ...»[٤]

كما يُقرر في موضع آخر: أنَّ «العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، وأنَّ السبب في ذلك أنَّه متى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنائع.»[٥]

كل هذا الذي يُقرره ابن خلدون حق لا شبهة فيه، فإنَّ البحث التاريخي يُؤكد لنا أنَّه تمر بالأمم فترات يطُول عهدها أو يقصر تبعًا لما يُحيط بها من ظروف، يكون همها الأوَّل وغرضها الأساسي المُحافظة على كيانها وتوطيد سُلطانها، ثم مُحاولة توسيع هذا السلطان؛ فإذا استتب لها الأمر ورسخت أقدامها وأمنت على نفوذها وسلطانها، شرعت

[٣] المراكشي، ط دوزي، ١٤٥.
[٤] المقدمة، ص١٣٨، طبع مصر سنة ١٣٢٢.
[٥] المقدمة، ص٣٤٤.

تستكمل وسائل الأبهة والعظمة، ومن ذلك الضربُ بنصيب وافر في المعارف والعلوم القديم منها والحديث.

لهذا ليس بدعًا أن ترى الدَّولة الأُموية التي أَسَّسها صقر قريش بالأندلس تُعنى قبل كل شيء بتوطيد سُلطانها في البلاد التي اقتطعتها من المملكة الإسلامية، وتُحاول التوسع في هذا السلطان بافتتاح ما يمكن فتحه مما جاورها من النواحي، ولا عجب إذن حين نرى أمراء هذه الدولة وخلفاءها — إلا في فترات قصيرة — ويتبعهم الأهلون، مُنصرفين عن الفلسفة والعلوم إلا ما تعلق منها بكتاب الله وسنة رسوله، والفقه واللغة، وما إلى ذلك من العلوم الإسلامية.

ولذلك يقول القاضي صاعد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢هـ: «إنَّ هذه البلاد استمرت بعد الفتح لا يُعنى أهلها بشيء من العلوم إلا بعلوم الشريعة وعلم اللغة، إلى أن توطد الملك لبني أُمية بعد عهد أهلها بالفتنة، فتحرك ذوو الهمم لطلب العلوم.»[٦] وغني عن البيان أنَّ المُشار إليه بكلمة «العلوم» هي العلوم التي من جنس العلوم القديمة الفلسفية التي لم يكن للعرب إلف بها.

وفي هذا يقول ناشرو الجزء الأول والثاني من كتاب نفح الطيب للمقرِّي في مُقدمتهم بالفرنسية لهذه الطبعة: «منذ أن استقرَّ العربُ في إسبانيا، أَسَّس الأُمراء الأُمويون أيضًا في قرطبة مجمعًا للعلوم، حيثُ كانوا يعلمون على الطريقة الشرقية علم الكلام، والفقه، والفلسفة، والبلاغة، والنحو واللغة.»[٧]

على أن هذه المؤسسة العلمية لم تسد حاجات الناس بعد أن تنبهوا لطلب العلم، فكان أنْ رحل كثير من العلماء إلى الشرق (مصر، الحجاز، الشام، العراق)، حيث منبع العلم ورجاله الأعلام. ويُعطينا المقري أربعًا وثلثمائة ترجمة من تراجم العلماء الرحَّالة، ولكنه لم يُرتب هذه التراجم أي ترتيب أبجدي أو زمني أو منطقي،[٨] ومن بين هذه التَّراجم لا يُوجد إلا عدد قليل جدًّا من العلماء الذين كانوا يُعنون بالدِّراسات الفلسفية؛ وذلك لأنَّنا لا

[٦] طبقات الأمم، ص٧١ طبع القاهرة.

[٧] مقدمة الجزء الأول من نفح الطيب، نشر أوروبا، ص٤٥.

[٨] مقدمة الجزء الأول من نفح الطيب نشر أوروبا، ص٤٥.

نرى من بين تلك التراجم الكثيرة العدد التي ذكرها المقري إلا «ثلاثين رحالة من الفلاسفة والمتصوفة والزهاد.»[٩]

وفي عهد الحكم المستنصر بالله (٣٥٠–٣٦٦هـ/٩٦١–٩٧٦م)، ابتدأت العلوم الفلسفية تأخذ مكانة ملحوظة، فإن قلب هذا الخليفة قد أخذ بشغافه المجد الأدبي أعظم مما أخذ به المجد الحربي الذي شغل أباه عبد الرحمن الناصر، فكان له فخر افتتاح هذه الدراسات العالية، وتمهيد سُبلها للرَّاغبين فيها والمُتطلعين إليها؛ حتى لقد جمع ما قد أَلَّف فيها من كل نواحي الأرض وأقطارها.

فقد كان كما يقول المقرِّي: «يستجلب المصنَّفات من الأقاليم والنَّواحي، باذلًا فيها ما أمكن من الأَموال حتى ضَاقت بها خزائنه، وكان ذا غرام بها، قد آثر ذلك على لذات الملوك.»[١٠]

وقد ظهر ميل الحكم لهذه العلوم أيام أبيه قبل أن يلي الملك، فبدأ يُعنى وهو أمير بإيثار أهلها واستجلاب عيون التآليف في القديم منها والحديث، من بغداد ودمشق ومصر وغيرها من بلاد الشرق، وذلك لفرط محبته للعلم، وسمو نفسه إلى التَّشبه بأهل الحِكمة، فكان هذا سببًا قويًّا لكثرة تحرك الناس في أيامه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم.[١١]

ولكي نحكم على ما وصلت إليه الأندلس في ذلك العصر من العناية بالعلوم والآداب، نذكرُ أنَّ بعض المؤرخين ذكروا أنَّ فهرست كتب خزائن الحَكَم بلغت أربعة وأربعين مُجلدًا لا تشتمل إلا على أسماء الكتب وحدها، وأنَّ عدد الكتب نفسها بلغ أربعمائة ألف مجلد، استغرق نقلها ستة أشهر.

كما نذكُر أيضًا أنَّه قد بلغت العنَايةُ بإيثار الأندلس بعيون المؤلفات، أنَّ الحكَم كان يعمل على إحضار الثمين من المؤلفات الحديثة العهد قبل أن تظهر في بلاد مُؤلفيها، ومن ذلك أنه كما يقول المقري نقلا عن ابن خلدون: «بعث في كتاب الأغاني إلى مؤلفه أبي الفرج الأصبهاني، وأرسل إليه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنُسخة منه قبل أن يخرجه بالعراق.»

---

[٩] نفسه، ص٥١.

[١٠] نفح الطيب، نشر دوزي ومن معه، ج١، ٢٥٦.

[١١] طبقات الأمم لصاعد الأندلسي، ص٧٥.

وقد كان الحَكَم نفسه مشاركًا إلى حدٍّ كبير في النظر في هذه العلوم، كما كان ثقة فيما ينقله، بهذا وصفه ابن الأبار وقال: «عجبًا لابن الفرضي وابن بشكوال! كيف لم يذكراه، وقَلَّما كان يوجد كتاب في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته وما يتناقل عنه من غرائب الحكايات الخاصة به.»[١٢]

وكان يُذْكي هذه الجهود ويدفع إلى الأمام تلك الحركة العلمية التي تعدُّ من أزهى الحركات العلمية، ما رانَ أيامَ الحكم من التَّسامح «الذي لا تكاد الأزمنة الحديثة تعرف له نظيرًا أو مثالًا واحدًا، فأولئك العلماء المسيحيون واليهود والمسلمون كانوا يتكلمون لغة واحدة هي العربية، ويتناشدون الأشعار العربية، ويُشاركون في الدراسات الأدبية والعلمية نفسها.

وهكذا، سقطتْ جميع الحواجز التي تفصل بين الناس، وصار الجميع في اتفاق وتعاون في إقامة صرح المدنية المُشتركة، وصارت مساجد قُرطبة بتلاميذها الذين يُعَدُّون بالآلاف مراكز عاملة للدراسات الفلسفية والعلمية.»[١٣]

ولكن هذا العمل المجيد الذي شاده الحَكَم قُضي عليه في شبابه، وهذا العهد الذهبي للدراسات العلمية والفلسفية لم يستمر طويلًا، فقد تحالفت عوامل مُختلفة على هدم ذلك الصرح العالي الذي أقامه نصير العلم والفلسفة بقرطبة، وعلى إطفاء ذلك المصباح الوهاج الذي كان يُنير السبيل أمام طلاب هذه الدراسات.

وذلك أنَّه بعد وفاة الحَكَم الثاني المستنصر بالله (٣٦٦هـ/٩٧٦م)، خلفه ابنه هشام المؤيَّد، وكان غلامًا حدثًا لم يُجاوز العاشرة من عُمره، فاستبدَّ به الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، وساعدته على هذا والدة الخليفة، ولم يجد الحاجب المنصور بدًّا من استمالة العامة إليه ولَمِّ جميع عناصر الشعب حوله.

وكان من هذا أن استجاب لجهل الجمهور وتعصب الفقهاء، وعمد أوَّل تغلبه على السلطة إلى خزائن الكتب التي بذل الحكَم عمره وكل ما يملك في جمعها، وأفرز ما فيها — بمحضر من أهل العلم والدين — من كتب علوم الأوائل القديمة، ما عدا كتب الطب والحساب، وبعد ذلك أمر بإعدامها.

---

[١٢] نفح الطيب ج١، ص٢٥٦.

[١٣] رينان، ابن رشد ومذهبه، ص٤.

فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة، وغُيِّرت بضروب من التغاير، وفعل ذلك تحببًا إلى عوام الأندلس، وتقبيحًا لمذهب الحكم عندهم، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم، مذمومة بألسنة رؤسائهم، وكان كلٌّ من قرأها مُتَّهمًا عندهم بالخروج من الملة ومظنونًا به الإلحاد في الشريعة.[١٤] وتوَّج المنصور فعلته بأن أصدر مرسومًا حرَّم به الاشتغال بهذه العلوم!

وهنا يحق للباحث أن يتساءل: هل ارتكب الحاجب المنصور هذا الجرمَ استمالة للعامة وفقهاء الأندلس، وتشويهًا لذكرى الحكَم، واستبقاء لسلطته، مع مُشاركته سرًّا في هذه العلوم، كما يُشير إلى ذلك المقري نقلًا عن ابن سعيد؟[١٥] أو كان — وهو رجل قد اغتصب السلطة من صاحبها الشرعي الضعيف هشام المؤيد، وكان همَّه الأول الحرب يُضيف فيها نصرًا إلى نصر — يكره العلوم التي قد تُعارض الدين، ومع هذا ففي العلوم الإسلامية غنى عنها، ففعل ما فعل بقلب راضٍ، وإن كان مُتأثرًا ببعض العوامل التي تقدمت الإشارة إليها؟

على أنَّه ليس مما يهم كثيرًا في هذا البحث أن نُحقق الدوافع التي دفعت المنصور إلى إعدام كتب العلوم القديمة، وإن كنا نكاد نجزم بأنَّه ليس منها الحدَبُ على الدين ودفعُ ما قد يتعارض مع بعض العقائد التي جاء بها، بل لعل اجتماع تلك العوامل يرجع إلى عمله على ستر فَعْلته في اغتصابه السلطة، واسترضاء العامة ورجال الدين؛ ليتأتَّى له المحافظة على الجاه والسلطان.

نقول: إن تحقيق ذلك ليس مما يهمنا كثيرًا هنا، وإنما المهم أن نُسجل أمورًا لها خطرها بالنسبة للفلسفة ومن كانوا يُعنون بها:

(١) إن أهل الأندلس لم يكونوا في هذا العصر من مُحِبِّي الدراسات الفلسفية، ويدلنا على هذا ما سبق أنْ نقلناه عن صاعد الأندلسي، وما ذكره المقرِّي نقلًا عن ابن سعيد في بيان حال أهل الأندلس في فنون العِلْم من أنَّ «كل العلوم لها حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم؛ فإنَّ لهما حظَّهما عند خواصِّهم، ولا يُتظاهر بهما خوف العامة، فإنَّه كلما

[١٤] طبقات الأمم، ص٧٦.

[١٥] نفح الطيب، ج١، ١٨٦.

قيل: فلانٌ يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم، أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يُرفع أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقربًا لقلوب العامة، وكثيرًا ما كان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرَّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أولَ نهوضه.»[١٦]

(٢) إنه لهذا؛ وبعد مرسوم الحاجب المنصور بتحريم الاشتغال بالفلسفة، صار الذين يشتغلون بها يستخْفون حتى عن أصدقائهم الحميمين، وذلك خشية أن يحكم عليهم بالزندقة والإلحاد إذا افتضح أمرهم.[١٧] كما كان هؤلاء الذين استمروا يحملون شُعلة التفلسف عرضة كذلك لكثير من المحن والأرزاء، بل لفقدان الحياة.

فقد جاء في ترجمة ابن باجة المُتوفى سنة ٥٣٣هـ أنه كان «علامة وقته وأوحد زمانه، وبُلي بمحن كثيرة وشناعات من العوام، وقصدوا إهلاكه مرات وسلمه الله منهم.»[١٨]

وكذلك يذكر لنا ابن أبي أصيبعة في ترجمة الحفيد أبي بكر بن زُهر، أنَّ المنصور أبا يوسف يعقوب من خلفاء الموحدين، وقد ولي سنة ٥٨٠هـ، قصد ألَّا يترك شيئًا من كتب المنطق والحكمة باقيًا في بلاده، وأباد كثيرًا منها بإحراقها بالنار، وتوعد بكبير الضرر من يُضبط مُشتغلًا بهذه العلوم أو عنده شيء من كتبها.[١٩]

وقد استَمَرَّ الحال كذلك — إلا في فترات قصيرة — إلى أيام ابن رشد، فقد روى لنا المراكشي خبر أوَّل اتصال بينه وبين أمير المؤمنين أبي يعقوب من الموحدين، وفيه أنَّه عندما دَخَل عليه وجده وابن طفيل وحدهما، وبعد أن سأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه قال له: ما رأيهم (يعني الفلاسفة) في السماء أقديمة هي أم حادثة؟ فأدرك ابن رشد الحياء والخوف، وأخذ يتعلل وينكر اشتغاله بالفلسفة.[٢٠]

وسنورد في الفصل التالي الخاص بحياة ابن رشد كثيرًا من هذه الشواهد التي تبين بجلاء كيف كانت الفلسفة علمًا ممقوتًا بالأندلس، وكيف كان رجالها وطلابها مضطهدين في هذه البلاد وغيرها من البلاد الإسلامية.

---

[١٦] نفح الطيب، ج١، ص١٣٦.

[١٧] ابن رشد ومذهبه، ص٦.

[١٨] طبقات الأطباء، ج٢، ٦٢.

[١٩] نفسه، ج٢، ٦٩.

[٢٠] المراكشي، ص١٧٤–١٧٥. وراجع ابن رشد ومذهبه، ص١٦.

(٣) برغم هذا وذاك كله لم تمت الفلسفة باضطهاد أهلها وإبادة أكثر مؤلفاتها، وظَلَّ هناك جماعة تحمل شعلة التفلسف وتُعنى بالدراسات العقلية النظرية وبكتب الأوائل.

وذلك أنَّه قد أفلت من محنة الحاجب المنصور بعض الكتب العلمية والفلسفية، فانتشرت في البلاد كما انتشر أمثالها من الكتب التي بيعت مع ما كان من الذَّخائر بقصر قرطبة أيام فتنة البربر، أو التي نُهِبت عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم لها عنوة.[٢١]

وقد ظلت هذه الكتب تنتقل من يدٍ ليدٍ، سرًّا مرة وجهرًا أخرى، وأحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنع، وساعد على هذا اشتغالُ قرطبة والقابضين على السلطان بالحرب الأهلية والاضطرابات والثورات من الخارجين عليهم، من أواخر القرن الرابع إلى أوائل الخامس الهجري، عن تعقب من يشتغل بالدراسات الفلسفية.[٢٢]

ويُضاف إلى هذه العوامل أنَّ بعض الأمراء الذين ولُوا الحكم بالأندلس كانوا يضمرون حُبَّ الفلسفة ويشجعون التفلسف سرًّا أحيانًا، وأحيانًا كان هؤلاء العلماء يلقَون لديهم قدرًا كبيرًا من الحماية والتشجيع جهرًا، فقد كان مالك بن وُهيب الإشبيلي من الفلاسفة الظاهرين، ومع هذا فقد استدعاه يوسف بن تاشفين في حضرته وجعله عالمه وجليسه.[٢٣]

وكذلك يذكر لنا القاضي مروان الباجي أنَّ المنصور أبا يوسف يعقوب من الخلفاء الموحدين، وقد مَرَّ اسمه آنفًا، لما قصد إعدام كتب المنطق والحكمة عهد بالأمر إلى الحفيد أبي بكر بن زهر، وأراد بذلك «أنَّه إن كان عند ابن زهر شيء من كتب المنطق والحكمة لم يظهر، ولا يُقال عنه إنه يشتغل بها، ولا يناله مكروه بسببها.»[٢٤] وشاء الحَسَدُ أن يحمل بعض أعداء ابن زهر على السعاية به إلى المنصور بأنَّه يُعنى بهذه العلوم وعنده الكثير من كتبها، وعُمل بذلك محضر شهد عليه كثيرون، ولكنَّ النتيجة لم تكن فحص هذا الاتهام، بل كانت عقابَ الشاكي والحكم بسجنه، ثم قال المنصور: «إنني لم أوَلِّ ابن زهر في هذا حتى لا ينسبه أحد إلى شيء منه، ولا يقال عنه ...»[٢٥]

---

[٢١] المراكشي ص٧٦، نفح الطيب ج١، ٢٥٠.

[٢٢] صاعد الأندلسي، ص٧٦.

[٢٣] نفح الطيب، ج٢، ٢٩٤، ٣٢٣–٣٢٤.

[٢٤] طبقات الأطباء، ج٢، ٦٩.

[٢٥] طبقات الأطباء، ج٢، ٦٩.

وهذا يدلُّ في رأينا على أنَّ اضطهاد المُشتغلين بالفلسفة كان مردُّه في كثير من الحالات إلى الرَّغبة في استمالة العامة والفقهاء، فإنَّ على هاتين الطائفتين تقوم الدولة غالبًا ويستمر السلطان للقائمين به.

(٤) بل إنَّ الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كان شديد الميل للفلسفة، فأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكَم المستنصر بالله الأُموي،[٢٦] وإنه لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب.[٢٧]

ثم كان منه أن اصطفى الفيلسوف ابن طفيل الذي لم يزل يجمع إليه العلماء من جميع الأقطار، ويُنبه عليهم ويحضُّه على إكرامهم.

وفي حُبِّ أبي يعقوب هذا الفلسفة ورجالها نُشير إلى ما كان من تشجيعه لابن رشد وطلبه منه أن يشرح أرسطو، وسيجيء الحديث عن هذا بالتفصيل.

هذا، وكل تلك الأمور التي نسجلها هنا تدلنا بوضوح على تأصل الفلسفة في تلك البلاد، على كره من أهلها للفلسفة وما إليها بسبيل، حتى إنه لما عَبر عبد المؤمن بن عليٍّ البحر إلى الأندلس وبايعه وجوهها، جلس للناس وللشعراء مجلسًا حافلًا، فكان أول من أنشده مادحًا له أبو عبد الله محمد بن حَيُّوس قصيدة له جاء فيها:

بلغ الزمان بهديكم ما أمَّلا وتعلمَت أيامُه أن تعدلا
وبِحَسْبه أن كان شيئًا قابلًا وجد الهداية صورة فتشكلا[٢٨]

وهذا دليلٌ على أنَّ بعض الأفكار الفلسفية وهي هُنا المادة والصورة، قد تأصَّلت في الأعماق حتى جرت شعرًا على ألسنة الشعراء، كما تدلُّ هذه الأمور أيضًا على أنَّه كما يقول «رينان» بحق: كل الجهود التي بذلت لهدم الفلسفة لم يكن منها إلا أنها أذكتها؛ فهذا سعيد الطليطلي يؤكد أنَّ دراسات العلوم القديمة في زمنه (١٠٦٨م) كانت أكثر ازدهارًا من أي زمن مضى.[٢٩]

---

[٢٦] المراكشي، ص١٧١.

[٢٧] نفسه، ص١٧٢.

[٢٨] المراكشي، ص١١٧.

[٢٩] ابن رشد ومذهبه، ص٦.

كما تدل كذلك على أنَّ ابن رشد قد جاء بعد عصر عقلي كبير زاهر، وإن كانت هذه الدراسات وقفت في الأندلس فجأة لعوامل مختلفة، ومن هذه العوامل التعصب الديني والانقلابات السياسية، والحروب التي قام بها الفرنجة، حتى إنه بموت ابن رشد سنة ٤٩٥هـ/١١٩٨م، فقدت الفلسفة الإسلامية آخر ممثل ونصير لها.